الأسبوع الأخير
الكاتب: عمر السميرات

الأُسبوع الآخير

الكاتب: عمر السميرات

تدقيق: مرح موسى عبد القادر

تنسيق: تالا وصفي ابداح

تمهيد:

أصبحت التزم الصمت أكثر من الكلام -ليس لأن السكوت من ذهب-، أنا طبعي قليل التحدث ومليء بالصمت، ولكن أصبحت أبالغ بالأمر، حتى اكتفيت بهزّ رأسي فقط والحديث بالإشارات.

لم ينفد كلامي، لكن لم أجد من يسمع، ولم أستطع أن أكلم نفسي أيضًا، ف لو فعلت ذلك لأصبت بالجنون حتمًا.

قررت والتكلم -بلغة العيون-، تلك المنتشرة بين الناس الآن، ويفهمون بعضهم من خلال نظرات غبية حمقاء كما يدّعون.

ولكن عل سأجد من يفهمني؟ ويفهم البريق المتوهج من مُقلتا عيناي برغبتي بحديث أحدهم !

لست أدري ..لا أعتقد هذا..

منذ طفولتي ولا أجد من فهمني ولو لمرة، ولا كلمة، ولا نظرة من عينيْ، لم أجد من يفهم ويفسّر حاجتي لمن يُزيح الحِمل الثقيل المتراكم على كتفي.

سأستمر بالصمت على أيّة حال.

وأعتقد أني أريد الوصول أيضًا إلى مرحلة الجنون والعته. تجربة جديدة ممتعة ستكون.

حتى وإن كان تمثيلاً، أريد ذلك، أريد التماس أعمق نقطة بتلك الحالة بأي وسيلة. وإن اختلقت هذا، لا يهم.

ومن يدري، ربما عندما أتصنَّع النسيان المستمر، اتناسى ما عشته، وما نقش بداخلي منذ الصِغر.

وريثما البس ثوب الجنون -المصـطنع- أصـبح أكثر سـعادة، وتعود إلي روحي المرحة التي سُلبت.

كل من فقدوا عقولهم يعيشـون الآن كالأطفال مرحين، يحلقون في سـماء جهل الواقع المرير، بلا ذكريات وهموم، وكأنهم ولدوا من جديد.

حقًا أريد كل ذلك وأكثر، أريد التغيير والتحرك من مكاني الذي لا زلت عالقا به.

لربما تفكيري هو الجنون بذاته، نعم نعم، هو كذلك.

في "الأول من أغسطس"، مررتُ بليلة عصيبة لم أشهد مثلها من قبل. شعرتُ بزيادة غير طبيعية في غضبي، وتصرفاتي أصبحت غير واعية أكثر من المعتاد، كان هذا اليوم غريبًا بشكل خاص، حيث فقدتُ كل الرغبات التي كنت أتمسك بها، وأثارت مشاعر جديدة بداخلي.

رغبتُ في استعادة ذكرياتي في ذلك اليوم، رغم أنني لا أعرف الهدف من ذلك، كل ما أذكره هو أن تلك الليلة كانت من أغرب التجارب في حياتي. بعد يوم مليء بالعناء، من الصراخ مع مديري في العمل إلى المشاجرات مع أساتذة الجامعة، والجدال مع عائلتي وسائق الباص الجشع، عُدت إلى غرفتي بصعوبة شديدة.

كان التعب الذي شعرت به غير مألوف، كنت أشعر أحيانًا أنني مصاب بحمى، وفي أوقات أخرى يبدو أن التعب ناتج عن نقص الفيتامينات، أو كأنني على وشك الموت، هذا التعب كان مختلفًا عن أي تعب شعرت به من قبل.

لعل هذه الحالة هي جزء من هذياني الدائم، حيث أجد نفسي أعيش في حالة من الهذيان المستمر، سواء بوعي أو بدونه، وأشعر بالحمى دون أن تكون هناك أعراض واضحة لها، مع ضبابية في الرؤية وضعف شديد.

أغلقت باب الغرفة بإحكام، ولم أخلع أي ملابس رغم حرارة الغرفة الخانقة والرطوبة العالية، ولا حتى حذائي المهترئ، سقطت على سريري كمن طُعن في ظهره وغطتُ في النوم فورًا، بدون التفكير المعتاد الذي أخصصه عادةً قبل النوم.

بعد أن غصتُ في نومٍ عميق على غير عادتي، استيقظتُ في اليوم التالي متأخرًا، عادةً ما أستيقظ مُبكرًا، حتى لو سهرت طوال الليل، ولكن هذه المرة كان مختلفًا، في ظهر اليوم التالي وجدت نفسي على السرير، حيث كان هناك اثنان يدحرجاني على الجانبين، ووالدتي فوق رأسي، تحاول اللحاق بهم وهي تبكي وتولول، قائلة: "اتصلوا على زوجي، إنه في العمل ولم يخبره أحد. أرجوكم، أبلغوه فورًا."

لم أكن أعلم من تخاطب، بل هي نفسها لم تكن تدرك، فقد كانت تتلعثم وتتفوه بكلام غير مفهوم من شدة البكاء، كنت فاقد الوعي تمامًا، وكل ما سمعته هو بكاء والدتي وصراخها، دون أن أعي شيئًا آخر.

في "الثاني من أغسطس"، وجدتُ نفسي أواجه زوجتي، التي كانت غاضبة وصارخة: "يا محمد، اتصل عليك عدة ممرضين من المستشفى ولم تجب، أين كنت؟ ألم يأنبك ضميرك؟ لربما مِتنا، ألا يهمك ذلك؟ أخبرني أين كنت؟"

أجبتُ ببرود: "ماذا تريدين يا امرأة؟"

قالت: "أبننا نُقل للمستشفى ظهر أمس، ولم نتمكن من الوصول إليك إلا اليوم، ماذا تفعل لنا؟ كيف يهمك الأمر؟ انصرف وإلا ضربتك."

أجبتُ بغضب: "يا لك من رذيلة ووقاحة، أنتِ لا تستحقين أن تكوني أمًا، لتذهبي إلى الجحيم."

ثم انتقلتُ إلى حديث آخر مع زوجتي، التي وصفتني بالشيطان، وقالت إنني أعيش على المشاكل فقط.

في "الثالث من أغسطس"، استيقظتُ على صوت والدتي التي تقول: "أوه! إنك استيقظت يا ولدي! حمدًا لك، حمدًا لك!" وكانت أختي بلقيس تقول: "يا إلهي، حمدًا لك، كم أنت لطيف بنا دائمًا!"

على الرغم من أنني تميّزتُ بصوت والدتي وأختي، كانت الرؤية شبه معدومة، لم أكن متأكدًا إذا ما كنت أتوهم أو أن نظري قد ضعف، لا أذكر إذا كنت قد شربت الماء الذي طلبته والدتي من بلقيس، ربما لم أكن واعيًا حينها، كنت فقط نائمًا، وعندما استيقظت، كان ذلك لدقيقة أو أقل، ثم عدت إلى الإعياء مرة أخرى.

في "الرابع من أغسطس"، استيقظتُ في الصباح الباكر، وكان الألم يضرب رأسي ويصفع جميع أنحاء جسدي، كأنني كنت أقطع الحطب طوال الليل. نظرت حولي وكنت قد عدت إلى وعيي، بعد يومين كانا كالحلم، لم أكن أعي شيئًا ولم أذكر أي موقف حدث، اليوم فقط أدركت أين أنا؛ في مستشفى.

الغرفة ضيقة وتفتقر للهواء الطلق، مغطاة بالعتمة، تحتوي على سريرين، واحد أستلق عليه والآخر فارغ. الرطوبة تملأ زوايا الغرفة بسبب انعدام ضوء الشمس وقلة الهواء فيها. بدت كأنها قبو مهجور أكثر من كونها غرفة مستشفى، لم أتمكن من تمييز لون الجدران، فقد كان لونها باهتًا وكأنها قديمة ومتآكلة، الستارة على النافذة الوحيدة في الغرفة كانت كخرقة بالية، رائحتها مثل الجوارب غير المغسولة، يبدو أنها لم تُغسل أو تُستبدل أبدًا، يا له من مستشفى بائس!

رائحة المستشفيات هذه غالبًا ما تجعلني أشعر بالغثيان والدوار، ولكن مع رائحة العفن في هذه الغرفة، كان الأمر أسوأ، كنت أخشى أن تكون هذه حالة هذياني المعتادة وأن ما أراه مجرد تخيلات أو أحلام، تساءلت إن كان يجب عليّ إيقاظ أمي، لكن قررت أن أتركها نائمة وأسترخي بدلًا من القلق.

بقيت هكذا ساعتين، بين الصمت والتساؤلات، حتى استيقظت أمي، ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، كأنها انتصرت، قالت: "أوه، حمدًا لك يا رب أنك استيقظت! أخبرني كيف أصبحت؟ هل يؤلمك رأسك؟ قل لي عن وضعك يا صالح!"

كررت أســـئلتها مرارًا، وكأنها تتوســـل لأعرف حالتي. أجبتها بالكذب: "أمي، أنا بخير، فقط شعور بالصداع، أين أنا؟"

قالت بقلق: "أنت حيث أنت، المهم أنك بخير، هل أنت جائع؟ لم تأكل جيدًا منذ أيام، ووجهك مصـفر من قلة الغذاء، سـأحضـر الفطور لنا جميعًا، ثم أخبرك، أسترخي ولا تفكر في أيّ شيء."

ثلاثتنا ؟

من ثالثنا؟ أعتقد أنها بلقيس، فهي ترافق أمي أينما حلّت.

ربما هي ذاهبة في مشوار ما، او آتية لم تصِل بعد، شيء من هذا القبيل، لا يهم.

في "الخامس من أغسطس"، استقبلتني منى قائلة: "مرحبًا يا خالتي..."

فأجابت خالتي باندهاش: "منى؟ كيف أتيتِ إلى هنا؟ وما عملك هنا؟ هل والدتكِ أتت معك؟"

أجابت منى: "كلا، جئت وحدي."

سألتها خالتي بقلق: "وحدكِ؟ ولماذا جئتِ هنا منذ الصباح الباكر؟"

أجابت منى بتردد: "إنني هنا لأجل صالح..."

فقالت خالتي بغضب: "صالح؟ وماذا تريدين منه؟ بأي حق تأتي إلى هنا؟"

أضافت منى: "لا، يا خالتي، دعيني أشرح لك الأمر."

لكن خالتي قاطعتها بحدة: "اصمتي! كيف لي أن أخبره أين هو الآن؟ قولي لي!"

كانت منى مترددة في أن تخبر خالتي أن صالح في مستشفى الأمراض العقلية، وأن نتائج فحوصات الدم التي أُجريت لم تصدر بعد، وكانت تخشى أن يكون ما تشك فيه صحيحًا ،لم تجرؤ على إخبارها بما كان

يفعله صالح أثناء هذيانه، من صياح وضرب رأسه بالحائط، لأنها لم تكن قادرة على ذلك.

قالت منى: "لست السبب، إنني آسفة على أي حال."

فردت خالتي بغضـــب: "يا لكِ من وقحة! بكل برود تأتين إلى هنا! هل تودين القضاء عليه؟ تعلمين أنه لا يطيق رؤيتك، أيتها الشيطانة الوقحة. أرحلي، أرحلي من هنا!"

همّت منى بالرحيل، ولكنها توقفت خارج المســـتشـــفى وعادت لتدخل غرفتي فجأة، كنت مستيقظًا حينها، لكنني تظاهرت بالنوم، لم أرد رؤيتها، رغم أنني كنت أكرهها وأحبها في الوقت نفســـه، على الرغم من كل ما فعلته بي، لم أستطع إلا أن أحبها أكثر مما كرهتها.

إنه طبع البشـــر، أن يتلذذوا بالعبودية المطلقة لمن يحبون، حتى وإن لم يبادلوهم الحب، يكفيهم البقاء تحت ســـلطتهم ورؤيتهم، حتى وإن كان وجودهم ينقص من كرامتهم.

صـــالح! أحقًا هذا أنت؟ أين اختفت ملامحك، وأين أثر ابتســـامتك؟ عيناك الواسعتان، ما بهما مغلقتان؟ لتنظر إليّ يا صالح، وتستيقظ! بالله عليك، قم.

آهٍ يا صالح، ماذا حلّ بك؟ كيف كنت وكيف أصبحت الآن؟

ما الذي أوصلك إلى هذه المرحلة؟

إن كنت أنا إحدى الأسباب، أو السبب الوحيد المطلق لوصولك إلى هنا، تالله لألقيَنَّ نفسي من نافذة الغرفة!

بالله عليك، قم، لم أقدّر وجودك بجانبي، وخوفك الدائم عليّ، ونصـــائحك التي كنت تقدمها لي، ومســـاعدتك التي كانت بلا مقابل، ورعايتك التي لم يقدمها لي حتى والدي.

قم، ناشـــدتك الله! إنني بحاجة إلى كل هذا الآن، وبحاجتك أنت. انهض يا صالح.

(هذا ما أذكره حين كانت بجانبي).

قد بكيت حينها، هذا ما حصـــل، لم أســـتطع كبح دموعي، فإنني أحبها، أحبها جدًا.

كيف لي ألا أبكي لرؤية من أحببتها؟

الإنسانة الوحيدة التي سرى قلبي نحوها، وفتح صدري إليها، هي منى، فكيف لي أن لا أبكي؟

ولكن لا أنكر أنني كنت أتلذذ بذلك؛ رؤيتها جاثية على ركبتيها، ممســـكةً بيديَّ، ورذاذ دموعها يملأ السرير، تتوسل كمن حُكم عليه بالإعدام.

كنت أشعر بنشوة الانتصار قليلاً، لأنني تنبأت بهذه اللحظة من قبل، وكنت دائمًا أخبرها بأنها ســترجع أمامي ندمًا على كل ما فعلته بي، وها هي قد جاءت مذلولة، جاثية، مقتلعةً ثوب الكرامة.

أكملت حديثها ورحلت، وواصلت نومي.

كل يوم أشعر بالتعب أكثر من ذي قبل، ولا أزال أجهل أين أنا.

الخامس من أغسطس

اســـتمعتُ لحديث الطبيب المعالج لي مع والدتي وأختي، وكانت منى في الغرفة أيضًـــا، ولكنها كانت تقف في الزاوية بعيدًا تجنبًا للتشـــاحن مع والدتي.

هي لم ترحل يوم أمس، علمتُ ذلك من حديثها مع أمي صـباحًا، فقد كانت نائمة على السرير المجاور لي.

صباح الخير يا سيدتي، هل أنتِ والدة المريض صالح؟

نعم أيها الدكتور، أنـا أمـه، كيف هو الآن؟ هل يوجد تحســـن في حالتـه؟ وكيف أصبحت نفسيته؟

يؤســفني إخبارِكِ يا ســيدتي بأنه لا يوجد تحســن في حالته النفســية أو الجسـدية، ولا يوجد تراجع أيضًـا، إنه لا يزال كما جاءنا، لسـت أدري إن كان سيتحسن أم لا.

سـندعه يومين آخرين، إن لم يكن هناك أي تحسـن ملموس، سـنضـطر لإخراجه من هنا، ولكن يوجد بعض الانتكاسـات الجسـدية؛ كما تلاحظين، يزداد ضـــعفًا وهزالًا واصـــفرارًا، ونتائج فحوصـــاته التي جاءت من المستشفى الآخر لا تبعث على التفاؤل.

كيف ذلـك؟ مـا بـه؟ مـا هي نتـائج فحوصـــاتـه؟ ولمـاذا لم يُخبرنـا أحد بصدورها؟

وصلت للتو يا سيدتي، ولم نخفِ عنكم شيئًا.

ماذا يوجد على الورق؟ اقرأ لي من فضلك.

نأسف لإخبارك أيضًا أن النتائج الأولية تشير إلى وجود غدد سرطانية في دماغه، ولهذا يشتكي دائمًا من ألم في الرأس، ولا علاقة لنفسيته بهذا الألم.

ماذا! ولكن منذ متى هذا؟! اسمعي يا بلقيس، لا أصدق ما أسمعه، قولي لي إن هذا كذب! (كانت أمي تصيح بوجه بلقيس، والصدمة تتلبسها).

بدأت بلقيس بالبكاء وهي تحاول تهدئة أمي، وقالت بنبرة باكية: لننتظر يا أمي، هذه فحوصات أولية، يعني هناك نسبة خطأ محتملة، لم نتأكد بعد.

وقال الطبيب مؤكدًا كلام بلقيس:

نعم يا سيدتي، كلامها صحيح، فلم نتأكد بعد، هذه فحوصات أولية، لننتظر ونرى ما سيحدث.

أيها الدكتور، كيف سأخبر صالح بكل هذا؟ كيف أتهرب من أسئلته التي تنهال عليَّ كلما رآني؟ لا أستطيع إخباره بحالته تلك، ولا بما سمعته الآن.

هذا لا يُعنيني يا سيدتي. أتمنى له الشفاء العاجل.

رحل الطبيب، وســقطت أمي على الأرض تبكي، وهي لا تكاد تصــدق ما سمعته، وبلقيس تحاول أن تهدئها. أما منى، فلا تزال في مكانها بالزاوية، والصدمة بادية على وجهها.

ارتسمت ملامح اليأس والاضطراب على وجه أمي وأختي، بينما ارتسم الخوف على وجه منى، بعد أن كانت تحاول التظاهر بالبرود أمامهن.

فجأة، همَّت أمي بطرد منى من الغرفة لتتحدث مع بلقيس على انفراد.

أغلقت الباب بإحكام، وأسدلت ستار الغرفة، وتفحصتني لترى إن كنت لا أزال نائمًا أم لا.

سارت نحو بلقيس، التي كانت جالسة على السرير المجاور لي، ووضعت أمي يديها على كتفيها، وتحدثت بلهجة من خسر حربًا، قائلة:

ما رأيكِ يا ابنتي؟ هل نخبره بالحقيقة؟

بقيت بلقيس تحدق في أمي والدمعة حائرة بين النزول أو لا، تنظر إليّ في كل لحظة، وهي شاردة الذهن.

ما رأيكِ يا ابنتي؟ أشيري عليّ، أرجوكِ!

لا أعلم يا أمي، لقد توقف عقلي عن التفكير الآن.

لا ينبغي أن نخفي عنه أكثر من ذلك. ســأخبره بالحقيقة، وأننا أحضــرناه إلى مستشفى الأمراض العقلية منذ أيام.

ولكن لن أخبره بنتيجة الفحوصات. إن بقي في عقله شيء، فسيفقده عند سماعه بها.

لن أخبره عن حالته السـيئة وهذيانه العجيب في الشـهور الماضـية، إن علم بما فعله، سيفقد عقله كليًا!

حين يستيقظ، سأخبره بكل شيء أنا فقط. أنتِ ستلتزمين الصمت، أي زلة لسان منكِ ستوقعنا في الهاوية.

لا تقلقي، يا الله، لتمر هذه الليلة على خير!

بعدما سمعتُ كل حديثهم، تجمدت في مكاني من الصدمة، أنا في مستشفى الأمراض العقلية! بل لدي غدد سرطانية أيضًا!

لن أستطيع شرح ما شعرت به في ذلك الوقت؛ صدمة أخرجتني من شعور الحياة وجعلتني أسرح في حقول أفكاري.

وبتّ أتساءل كالمجنون وأنا أتلعثم:

كيف لهم الحق أن يأتوا بي إلى هنا؟ بل كيف اقتنعوا بأني مريض أصلاً؟! لا، لا، هذا هو الجنون بذاته!

لم أفقد عقلي بعد، لا أزال في رشدي!

الذي صدمني وكاد أن يفقدني عقلي ليس وجودي هنا أو سماعي لكل ما قالوه، ولا كذب أمي وأختي عليّ، بل أنهم صدقوا بأني مجنون وجاءوا بي إلى هنا.

"السادس من أغسطس"

أمي، صالح مستيقظ، تعالي سريعًا!

آه، صالح! حمدًا لك يا رب، حمدًا لك.

كيف حالك يا ولدي؟ أخبرني بماذا تشعر، هل يؤلمك رأسك أو أي شيء آخر؟ إنك تهذي طوال الليل وأنت تصيح في عز نومك: "رأسي يؤلمني، رأسي سينفجر".

نظرتُ إلى اليسار قليلاً، أحاول استرجاع ذاكرتي؛ هل أنا فعلاً أهذي ليلاً؟ هل كنت أقول كل هذا؟

نظرتُ إليها، ورفعتُ حاجبيّ، وبدت ملامح التساؤل على وجهي، وسرعان ما فهمت تعابير وجهي، فقالت:

نعم، لا تكاد تمر ليلة إلا وأنت تهذي وتشتكي من ألم في رأسك.

استمريت بالصمت، وأدرت وجهي عنها للناحية الأخرى لبضع دقائق، ثم قررت أن أسألها عن حقيقة ما سمعته، فقط لأرى هل ستستمر في الكذب أم ستقول الحقيقة.

وبالكاد استطعت النطق، وقلت بمشقة:

سأسألكِ سؤالاً، ولا تتهربي.

قالت وهي مرتبكة وقد ضمت يديها:

سؤال؟ نعم يا ولدي، متى كذبت عليك من قبل؟

أين أنا؟ ومنذ متى أنا هنا؟ ومن أتى لزيارتي؟

توقعت سؤالك، سأخبرك بكل شيء، لكن ناشدتك الله لا تغضب ولا تنفعل، فقد قال لنا الطبيب إنك يجب أن تبقى مسترخيًا.

قولي لي فقط...

حسنًا، سأخبرك، ولكن أرجوك لا تنفعل، منذ أمس وأنا أشاور بلقيس: هل نخبرك أم لا؟ وبما أنك مصرّ، سأخبرك.

أنت هنا في مستشفى الأمراض العقلية، أتينا بك منذ أيام، فقد كانت حالتك سيئة للغاية، وخفتُ أن تزداد سوءًا.

أعلم أنك ستُصدم، ولكن حالتك النفسية سيئة جدًا، وكل من حولك لاحظ ذلك.

دائمًا ما تهذي وأنت نائم، وحتى وأنت مستيقظ، تتحدث مع الحائط، وتتخيل أمورًا غير موجودة، وتتفوه بكلمات غير مفهومة.

وقد فُصلت من جامعتك بسبب هذه الحالة.

في كل مرة أخبرك أن تأتي معي إلى طبيب نفسي لزيارات فقط، ترفض وتصرخ في وجهي.

ولكن بعد أن فقدت وعيك في الحادثة الأخيرة، اضطررت إلى نقلك هنا.

أي حادثة تلك؟

ألا تذكر ما حدث معك؟

لا، قصّي عليّ ما حدث...

بعد فصلك من الجامعة، أخبرني بعض الشهود أنك كنت تمشي في الطرقات تصرخ وتتحدث بكلام غير مفهوم. ووجدتك فتاة (أرشح أنها منى) في الشارع المجاور لحيّنا، وحينها تكلمتما لبضع دقائق، ثم صرختَ صراخًا عاليًا وأغمي عليك.

أنا فعلت هذا؟ هل فُصلت من الجامعة فعلاً؟ وأين منى؟ أرسلي من يأتي بها فورًا!

إنها ليست هنا الآن.

أتت أمس من الصباح وبقيت لساعات ثم رحلت، وقالت إنها ستسافر اليوم إلى مصر.

أعلم أنها كانت هنا، ولكن... لا بأس.

إذن، كنت مستيقظًا وهي هنا...

نعم، وأعلم أنها كانت بجانبي، وسمعت كل ما قالته، وكل ما قاله الطبيب لكِ ولبلقيس أيضًا.

ماذا؟ سمعت كل شيء! إذن... إذن أنت على علم بكل شيء!

أومأت برأسي قليلاً مجيبًا على سؤالها، فقالت بدهشة وخوف:

طالما أنك تعلم، لماذا سألتني؟

لا شيء، أحببت أن أسمع القصة منكِ... والآن، اخرجي، أريد البقاء وحدي، ويفضل أن تذهبي إلى المنزل، لا أريد رؤيتكِ، ولا رؤية أحد منكم. دعوني وشأني.

وأعلم أن أبي لم يأتِ طيلة أيامي هنا، وربما لم ينفق قرشًا في علاجي، فهو عبدٌ للقرش، كم هو وغدٌ جشع!

لا أعلم لماذا جاء ببالي الآن، ولكن إن فكر في القدوم يومًا، أخبروه ألا يأتي؛ لا أطيق رؤيته.

والآن، ارحلي، ولا تأتي مطلقًا... مطلقًا!

رأيت الدمعة تتراقص على رمش عينيها، ولكن قلبي أصبح قاسيًا فجأة، لم يرف له جفن، بل لم يشفق عليها، وهي أمي، ورحلت فعلاً، عادت إلى المنزل على أمل أن تهدأ الأمور لاحقًا. حاولت النوم لأريح جسدي قليلاً، ولكن لم أستطع أن أكف عن التفكير. كل شيء أصبح معقدًا بلا سبب، وغصت في التفكير أكثر فأكثر. أتفه الأسباب وأصغر التفاصيل أصبحت كبيرة ومتشابكة، ولست أعلم السبب.

بعد مضي ساعة تقريبًا من التفكير المكثف، سمعت صوت أقدام تقترب من الغرفة، كان الصوت أشبه بطقطقة الكعب الذي تنتعله النساء، وفُتح الباب، وظننت أنها أمي، كنت على وشك الانفجار غضبًا لأنني طلبت منها الرحيل، فإذا هي منى! توقف عقلي عن التفكير فجأة، وتصبب جبيني عرقًا، وشحب لوني قليلاً. أصبح عقلي صافيًا كسماء الصيف، خاليًا من أي سحابة أفكار سوداوية. كم كان هذا غريبًا حينها.

عندما دخلت، ارتسمت الابتسامة المشرقة على وجهها الدائري. منى، ابنة خالتي الوحيدة، التي تدرس في مصر وتأتي بين الحين والآخر لزيارة أهلها هنا، كانت بها جميع مواصفات فتاة أحلامي؛ فتاة بيضاء البشرة، شعرها منساب على كتفيها كالحرير، سوداء العينين، واسعتا المحجر، كثيفة الحاجبين، نحيلة الجسد قليلاً، متوسطة الطول، شفتاها ورديتان وخداها يحمرا كالجمر عندما تغضب أو تخجل. تمتلك ابتسامة فاتنة تسحر كل من رآها دائمًا كنت أراها ملاكًا كاملاً، لم أرَ بها عيبًا واحدًا. إنها ملاك فعلاً.

ولكنها ماكرة جدًا، لديها خبث كبير، أخبث من الشياطين التي تتسكع في الحانات ليلاً تستطيع أن توهمك بحبها لك، وتجعل خيالك يسرح بعيدًا، ثم تصفعك على وجهك عندما تبدأ بالحلم، كم هي ماكرة.

بعد دقائق من التحديق بي بغبطة وسرور، سألتني:

صالح، هل أنت مستيقظ؟ أتيت لزيارتك أمس ولم تشعر بوجودي لم تحرك ساكنًا طيلة الوقت، كنت أشبه بالميت، لا حركة ولا صوت. خفت عليك كثيرًا يا صالح! كيف أصبحت الآن؟

منى...

أخبرني، ماذا تريد أن تقول؟

ألم تسافري؟

لا. من قال لك هذا؟

أمي.

نعم، كنت سأذهب إلى مصر اليوم، لكنني قدمت عذرًا إلى دكاترتي هناك، أردت التغيب أسبوعًا.

لماذا؟

لأجلك... أردت الاطمئنان عليك.

لا أريد وجودك، احزمي أمتعتك وغادري.

قل ما تشاء، سأبقى هنا رغمًا عنك.

شعرت بالفرح قليلاً، أن أحدهم يهتم لأمري بعض الشيء. ربما هذه المرة هو صادق. ومن ذاك الشخص؟ منى! شعرت أنني أهذي، بل أتساءل إن كان هذا حلمًا، لم يُخيل لي يومًا أن ألقى اهتمامًا من أحد، خاصة من منى. ربما هو حلم فعلاً.

أين شــردت يا صــالح؟ أين عمّي؟ ســألت خالتي أمس وقالت إنه لم يأتِ لزيارتك، هل هذا صحيح؟

نعم، لم يأتِ.

إنه ذو قلب قاسٍ، لطالما كان شديدًا في تعامله مع الجميع.

هل لاحظتِ ذلك؟

الجميع يلاحظ ذلك، ليس أنا فقط.

لم يكن أبًا حسنًا معي يومًا، ولا ربّ أسرة جيدًا كان سيئًا في تصرفاته مع العائلة، ويعاملني كأنني يهودي. لا أبالغ في الوصـف، لم أشـعر يومًا أنه أبي. كان قاســي القلب معي، لا ذرة رحمة أو عطف تنبع من داخله. ربما هو أحد أهم أسباب وجودي هنا.

إذن أنت تعلم أين أنت؟

نعم. لم أحب أبي يومًا، لأنه لم يمنحني سوى الأذى والضرب ،كان غليظ القلب عديم الرحمة، عدا عن كونه مقامرًا سكيرًا وفوق كل هذا، حرمني من عيش طفولتي.

كل طفل منا يقص على أصدقائه أحداث طفولته المبهجة وما كان يفعله من مغامرات، إلا أنا، لم أشعر أنني طفل ولو ليوم واحد. كلما نبشت في ذكرياتي، لم أجد سوى السواد والمرارة، حملت مسؤولية البيت مبكرًا، رغم وجود أبي، لكن كل نقوده كانت تُصرف على المقامرة والملاهي الليلية.

أنا يا منى، أحد الأطفال الذين استحوذ عليهم الحزن في وقتٍ مبكر. كان من المفترض أن ألعب مع أبناء جيراننا، لكنني كنت أقف بعيدًا، أنظر إليهم من خلف الجدار أو من فوق سطح منزلنا بحسرة، كنت دائمًا أنتظر صوتًا يدعوني للمشاركة في اللعب، لكن بدلاً من ذلك، كان صوت أبي يصرخ بي لأعود إلى الداخل. كلما طلبت الخروج كأي طفل، ينفجر غضبًا في وجهي، ويصفعني صفعة تهز أركان جسدي.

أريد أن أعزي طفولتي التي اغتيلت، وروحي التي اغتصبت، كنت مشروعًا ناجحًا لمن أراد تحطيم طفل.

أنهيت هذه القصـــة، ورأيت منى تذرف الدموع، تمســـك بيدي بإحكام وتقول: "أنا هنا، ســـأبقى بجانبك إلى الأبد." وأنا، ابتســـمت بكل يأس وأزحت يدي عنها، وقلت لها: "يبدو أن الأوان قد فات يا منى، قضـــيت جميع أيامي الســـيئة وحدي، ولم أجد من يخفف عني والآن، بعد أن انطفأت روحي، لا حاجة لي بوجود أحد. يمكنك الآن الســـفر لإتمام دراستك، إرحلي."

بقيت ممسكة بيدي لقرابة النصف ساعة، وهي تردد: "سأبقى بجانبك، لن أخذلك هذه المرة."

التمست بعضًا من الصدق في كلامها، وكان هذا غريبًا؛ لم أعتد على صدقها معي في يوم من الأيام. ولم يسبق لي رؤيتها متأثرة بهذا الشكل من قبل. كانت تبكي وتتنهد بحرقة، ولعلها صادقة معي اليوم.

كلما حاولت إفلات يدي منها، كانت تقترب أكثر وتُحكم قبضتها، وتستمر في ترديد تلك الكلمات.

لا أدري هل هي صادقة، وتريد البقاء بجانبي حقًا، أم أنها تشفق علي وعلى حالتي. ربما هو الشفقة؛ فأنا شابٌ تبدو هيئتي مثيرة للشفقة. أسمر نحيل الجسد، ضعيف البنية، لا أملك من الطول إلا القليل. شعري خشن مجعد كثيف، وبدأ الشيب يظهر فيه شيئًا فشيئًا. وجهي ملطخ بحبوب متناثرة بشكل عشوائي، والتجاعيد بدأت تظهر عليه مبكرًا. الشيب والمشيب زارا وجهي قبل أوانه.

فوق كل هذا، أصبح لوني شاحبًا أكثر، وملامحي يكسوها التعب، كيف لا تشفق هي علي؟ كيف لأي أحد يراني ألا يشفق على حالي؟ ف قوامي يشبه المتسولين الجالسين على الطرقات.

مضى اليوم على هذا الحال؛ بقيت بجانبي تردد تلك الكلمات، وكأنها نادمة على شيء ما. ولم أذكر أنها أفلتت يدي، إلا عندما ذهبت لتؤدي الصلاة أو لتحضر العشاء.

السابع من أغسطس

استيقظت حدود السابعة والنصف صباحًا. كانت منى تجلس على الكرسي المحاذي لي، وما زالت ممسكة بيدي، وقد ألقت برأسها على السرير. يبدو أنها كانت نائمة هكذا طوال الليل.

نظرت إليها مطولًا دون أن أزيح نظري عنها؛ جمالها لا يقاوم، إنها كالملاك. على الرغم من كرهي لها وعدم احتمالي لرؤيتها، إلا أن جمالها كان يسيطر علي.

استيقظت من نومها وقالت بابتسامة يغلبها النعاس:

صباح الخير يا صالح، منذ متى وأنت مستيقظ؟

طرحت هذا السؤال علي، لكني بالكاد أدركته، فقد كنت مأخوذًا بجمالها.

سأذهب لأحضر الفطور، لن أتأخر.

لم أجبها، ولم أحرك رأسي حتى. ذهبت إلى الكشك المجاور للمستشفى لتحضر القليل من الفطائر والشاي، ثم عادت.

أكملنا فطورنا. لم أستطع تناول أكثر من قطعة واحدة، رغم أنني كنت أتضور جوعًا. ثم سألتني سؤالًا لم أتوقعه منها، قالت:

صالح، أريد أن أسألك سؤالًا بسيطًا، ولك حرية الإجابة، لكن أرجوك أن تجيبني.

لكِ ذلك.

هل أنا من أوصلك إلى هنا؟

صمتّ لدقيقتين، ومرّ أمامي شريط ذكرياتي معها. ابتسمت ابتسامة غريبة، ثم أخذت نفسًا وقلت:

وما نفع الإجابة؟ إنني هنا وقد قُضي الأمر.

أرجوك، أخبرني.

عاودت الصمت لدقائق، ثم استجمعت قواي، وأسندت ظهري قليلًا، وقلت بكل برود:

ربما، وربما لا...

رأيت وواجهت الكثير في حياتي، وتعرضت للكثير حتى وصلت إلى هنا. لكن أعتقد، بل أجزم أنكِ أنتِ وعائلتي السبب الرئيسي في ذلك.

لأنك أحببتني، وأنا اســـتمر بالرفض دومًا، ولكنك كنت دائمًا تعود لتبقى بجانبي، وأنا لم أكتفِ بذلك. كنت أجرحك وأشتمك، يا لي من خنزيرة!

هه، أريدك أن تعرفي شيئًا، ربما هذه أول مرة أخبر أحدًا به غير نفسي:

لم أدعُ يومًا أن ألتقي بكِ كمحبوبتي، أو أن نعيش كالعشاق، ونجول بلدان العالم لنروي قصـــة حبنا للناس. كنت أدعُ لكِ بالســـتر الدائم، وأن يجبُرك الله، فهو أحنّ مني عليكِ.

أدعو الله لكِ بالدرجات الرفيعة في دراســـتك، وفي عملك، وفي جميع مراحل حياتك.

كنت أدعو الله أن تدمع عينكِ فرحًا بما تتمنين، ولا زلت أدعو. كنت أريد أن أراكِ تبتسمين فرحةً بما تسعين إليه، ولا زلت أدعو.

لأنني عاهدتُ نفسي بالدعاء لكِ طيلة حياتي، حتى الآن، لا زلت أدعو لكِ، وأنا أعلم أننا لن نجتمع على منضدة واحدة، ولا حتى في الأحلام.

حتى بعدما كرهتك الآن -أقولها بكل وضوح- لا زلت أدعو الله لكِ.

لا أدري ما حجم هذه التناقضـــات في داخلي، لكن لا عليكِ، هي أشـــياء لا قيمة لها.

كنت أريد البقاء بجانبك لأجلك فقط. لم أفكر يومًا في نفســـي، ولا في ســـعادتي التي تكمُن برفقتك. كل ما كان يســـيطر على تفكيري هو أنتِ، وكيف أُسعدك.

لكنني لم أنجح في ذلك. كنت ألقى الاحتقار والذل منك باســتمرار. كلماتك كانت كسهام جارحة تنفجر بداخلي، لكنني لم أكترث؛ لأنني لم أكن بجانبك لأجلي، ولا لكي تقولي لي "أحبك". فقط بقيت لأجلك، ولربما هذا هو سبب بقائي على قيد الحياة.

كل شخص لديه سبب للعيش، وأنتِ كنتِ سببي.

أما بخصوص حالتي النفسية، فلا أعلم ما بي، وما سبب وصولي إلى هذا الحال إنني تائه بين الماضــي والمســتقبل، لا أســتطيع التقدم أو العودة، عالق في وحل من الذكريات، داخل مســتنقع مليء بالإحباط والكراهية ما يزيد كرهك لنفسك وللآخرين. لا أعلم، أحقًا هذا أنا؟

لم تســتطع منى التفوه بكلمة، كانت تبكي وتنوح، لم أرها هكذا بيوم في حياتي، تبكي بكل حرقة، وعينيها تغليان من شــدة البكاء، وتضــع يداها على وجهها بكل حسرة وهي ترتجف، لم أرها بكل هذا الضعف في يوم !

عندما طلبتها الرحيل لأكثر من مرة، لم تســمعني، وأصــرت على البقاء، وانقضى اليوم على ذلك.

-كيف حالك يا سيدتي؟

أنت والدة المريض صالح أليس كذلك

- أهلاً أيها الدكتور، نعم أنا والدته .. أخبرني هل ظهرت النتيجة؟

- لا أعلم ماذا سأقول لكِ، ولكن ثبت وجود ذلك المرض في ولدك وانتشاره يجري بشكل سريع

- كيف كيف ! قل لي أن النتيجة غير ذلك بربك

- أعتذر يا سيدتي، هي كذلك

- ولكن، كيف نستطيع علاجه، أين، ما الدواء، ماذا نفعل أرجوك!

- لا أعلم بالضبط يا سيدتي، عليكم والذهاب به إلى مستشفى "س" للسرطان وهم سيفعلون ذلك، هذه ليست مهمتي ولا استطيع افادتك

- رباه ما هذا الأسبوع العصيب

ماذا سأقول له؟

- لست أدري، إنها صعبة حقًا..

ولكن سأخبرك بشيء سيء آخر، وصلني مع الفحوصات، بأن هذا المرض ينتشر بشكل كبير في جسده، وعليكم اللحاق به وتسفيره للعلاج بالخارج، لن أعتقد أنه سيستفيد هنا.. وأخبروني بأنه ربما هذا هو "الأسبوع الأخير " له.

فقد تفشى المرض سريعًا به، وعلاجه لن يجدي نفعا .

- **يا دكتور ما كل هذا، لتخفف عنا ارجوك، أسبوع أخير ! يا رباه قف معنا يا رب.**

بعدما بقيت منى عندي، قد أمرَتها أمها بالعودة على الفور للمنزل كي تعيد ترتيب أغراضها وتسافر مصرًا لإكمال دراستها.

بقيت تلك الليلة بمفردي، احاول وأن أتذكر ما عشته في المستشفى هنا، ف أنا سريع النسيان، ربما أصبت بالزهايمر وأنا لا أعلم.

كنت أشعر بتعبٍ لم أشعر به من قبل، جميع عظامي ومفاصل جسدي تؤلمني، وراسي يكاد ينفجر، وأشعر بالغثيان المستمر والحمى.

أريد التحدث مع أي شخص هنا، اشتقت ل منى ! لست ادري لماذا اشتقت لها، ولكنني أريدها الآن.

أريد أي أحد أخبره أنني متعب، إنني كتوم إلى أبعد الحدود، ولكن لست أدري ماذا حل بي هذه الليلة، أريد وإزالة جبال الهموم عن صدري.

وقفت أريد النظر إلى شمس الغروب من النافذة، لم اقوى على الوقوف لأكثر من خمس دقائق، وإذا بي سقطت على السرير على حين فجأة، والسواد قد أسدل ستار عيناي.

" العاشر من أغسطس"

ما هذا، أين أنا الآن؟

ماذا أتى بي إلى غرفتي، بل متى خرجت من المستشفى ؟

أشـعر بالراحة، على غير عادتي، ولا أفكر بأي شـيء، ثمة شـيء مريب يحدث.

لم أشعر بهذا القدر من الراحة منذ كنت في رحم أمي، حقًا شيء غريب.

ولكن، لم يتغير طبع بيتنا، الصراخ والضوضاء تكاد تسمعها من على بعد كيلومتر من بيتنا.

من بعد بقاءي ساعة أو أكثر في فراشي، لا أفكر بشيء، فقط انظر للنافذة واتفحص تفاصيل غرفتي بكل إمعان ودقة، وكأنني أول مرة أراها.

اخيرًا، نهضت، وكان باب غرفتي مفتوحًا، ذهبت للصالة، كان أبي يجلس على أريكته الخاصة ككل يوم جمعة، وبيده الجريدة وأمامه فنجان القهوة.

وأمي التي تنشغل في أعمال البيت منذ بزوغ الفجر إلى غروبها، وإخواني يتصارعون كعادتهم على اتفه الأسباب.

أزعجني صـوتهم كالمعتاد، فلا أحب سـماع الصـوت المرتفع، يزعجني بشكل كبير.

ف قلت مخاطبًا الجميع بصوت واحد:

هي هي، ما بالكم تصرخون هكذا، ستتسببون بطردنا من صاحب المنزل قريبًا !

هي، يا بلقيس! إنني أخاطبك لتنظري إلي !

لم يسمع أي أحد صراخي، بل لم ينظروا إلي حتى، ماذا يحدث؟

يا إلياس، أخي، ما بك تتقاتل مع بلقيس، لتخفض صـــوتك أيها الوقح.
(هكذا عاودت الحديث بلهجة حادة)

لم ألقى اي اجابة من أحد، خاطبتهم جميعًا، امي وأبي وإخواني، لا أحد يصغي إلي، وكأنني غير مرئي هنا !

نظرت إلى باب غرفتي، كان أحد واقف خلف الباب، يشير إلي بإصبعه كي آتِ إليه، قلت من هذا ؟ وذهبت لألبي نداءه.

عندما دخلت الغرفة، أغلق الباب بقوة، وكأن ريح عاصـــفة أغلقته من شدة قوتها، ولكن لا يوجد رياح الآن، ف نحن في شهر أغسطس ولا تكاد تشعر بالهواء إلا مع نسمات الصباح بعد الفجر.

كان ذاك الرجل، بل العجوز، إنه عجوز طاعن في السـن، الشـيب يكسـو جميع الشعر على جسده، حتى حاجبيه و رمشيه.

قصير القامة هزيل الجسد، يمسك ب عصى طويلة ويرتجف وهو واقف، يرتدي ملابس بالية عتيقة، و يضع وشاحًا من الحرير على رقبته، وينظر إلي وكأنه يعرفني منذ سنين !

قال لي :

- اقترب يا صالح.. اقترب يا صالح

- من أنت..!

- لتقترب يا بني ولا تخف

- قل لي من أنت !

- أنا هو أنا، كف عن الأسئلة ولتقترب مني

كانت لهجته مروعة ومخيفة، ابيضّت شفتاي والتصقتا من شدة الخوف، تعرّق جبيني وقُصفت ركبتاي من الخوف، لم أعد أقوى على الوقوف !

ركضت تجاه الباب فتحته وخرجت، لم أجد أي أحد في الصالة !

أمي، أبي، أين أنتم ! إخوتي، أيها الناس أين أنتم !

وأخذت أركض وأركض ابحث في كل أركان المنزل عن أحد، ف لم أجد !

نظرت للخلف، فكان ورائي ذاك العجوز ينظر إلي ويبتسم ساخرًا، ويقول:

- لا تبحث عن أحد، فلا يوجد سوانا هنا

- مـ،مـ..ماذا !

كيف لا يوجد، منذ قليل كانوا هنا، أقسم بأنهم كانوا هنا !

- لا، لم يكن أي أحد هنا، أنت تهذي، حتى بعد رحيلك..

- ولكن، ماذا تقول ايها العجوز اللعين !

- هه، لتواصل البحث أيها المسكين، ها ها ها

زاد غيظي، وازدت حنقًا وغضبًا، أحضرت سكينًا كي اطعنه، لحقت به، حاولت ضربه، لم استطع، شيء ما يثقل كاهليْ، يمشي بكل بطء و لا يزال يضحك ويسخر (شاب مسكين ها ها).

ازداد اضطرابي، وازدت غرابة مما يحدث حولي، كل شيء يتلاشى أمامي ويختفي، حتى ذلك الرجل، اختفى على حين فجأة!

أمي أبي إخواني، أين أنتم بربكم ! إن كان مقلبًا هذا لتخرجوا وتخبروني!

كل شيء غريب من حولي، ولا يُصدق، لست أعلم ماذا يحدث هنا، أعتقد أنني قد مِت.

حاشية:

هذا العمل كُتب خلال معركة طوفان الأقصى، فمن وصل إلى هنا ليدعُ الله لهم بالثبات والنصر والتحرير المطلق.

أهدي هذا العمل إلى جميع أعضاء فريق قلمنا يصنع المستحيل، أخص بالذكر مديرة الفريق مرح موسى عبدالقادر أختنا و معلمتنا القديرة لها كل الشكر والامتنان على جهودها الجبارة لإنجاح القصة و للجهود في المجموعة وأقدم الشُكر أيضًا إلى الكاتبة اية نعيم لأنها كانت سبب في وجودي داخل الفريق.

الكاتب، عمر محمد السميرات.

قلمُنا يَصنعُ المُستحيل

النـهايـة.